

التوجيه التطوري للملكة اللغوية مقاربة معرفية

The evolutionary perspective of language faculty Epistemological approach

حسين بن ترسية*

مخبر الشعيرة - جامعة باتنة 1

hocine.bentrcia@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2026-06-07

تاريخ الإرسال: 2025-10-02

ملخص:

سعى هذا المقال إلى مقارنة الجدل القائم بشأن مشروعية اتخاذ نظرية التطور إطارا مرجعيا للبناء المعرفي في الفكر الغربي؛ حيث تمّ اتخاذ سؤال تطورية ملكة اللغة زاوية لهذه المقاربة؛ انطلاقا من دور هذه الملكة في تمييز الإنسان عن الكائنات الأخرى. وتمّ التطرق إلى هذا السؤال من منظور النموذج المعرفي الحسي الذي يهيمن على الفكر الغربي؛ حيث تمّ استعراض ومناقشة مظهرات هذا النموذج في عدد من الدراسات التي تمحورت حول تفسير ظهور وتطور ملكة اللغة البشرية، وتم تصنيف هذه الدراسات وفقا لمعيارين اثنين متقاطعين؛ أولهما طبيعة الأساس الذي انبثقت منه ملكة اللغة بين بيولوجي وثقافي، وثانيهما علاقة هذه الدراسات بالتفسير الدارويني للمسار التطوري عموما، وتطور ملكة اللغة بوجه خاص. وجاءت النتيجة مرجحة للنموذج المعرفي الذي يتبنّى المنظور الرافض للمرجعية التطورية للغة ومن خلالها الإنسان.

الكلمات المفتاحية: نظرية التطور؛ تطورية ملكة اللغة، انتخاب طبيعي؛ داروين، تشومسكي.

Abstract:

This article is about settling the argument about the legitimacy of considering evolution theory as an ontological and epistemological paradigm in western thought. It addresses this issue from a linguistic perspective, through the evolutionary of human language faculty question considering its uniqueness to the human being. It argues that this question is discussed through a materialistic epistemological model, with different perspectives in terms of the nature of the origin of language evolution: biological or cultural on the one hand, and its

* - المؤلف المراسل.

compatibility with the Darwinian point of view based on the natural selection principle on the other hand. The conclusion was that the explanation offered by the first perspective of this model is not logical, and the alternative perspective is the one that says the human faculty of language was there from the very beginning, hence, the human being is a unique separated species and has no shared ancestor with other species.

Keywords: evolution theory, language evolutionary, natural selection, Darwin, Chomsky.

1. مقدمة:

لا تزال نظرية التطور تمارس تأثيرا معرفيا يرقى إلى درجة التأطير المرجعي للوعي الوجودي في الفكر الغربي، لكن عمق هذا التأثير لا ينفي حضور الرأي الناقد لهذه النظرية؛ سواء في أسسها أو في بعض جوانبها؛ لتكتمل بذلك صورة الجدل المستمر. ونتيجة لاتساع مساحة التوجه القائم على تصور "بنية العلوم"، لم يعد هذا الجدل مقصورا على علوم بعينها كالبيولوجيا و الجيولوجيا، بل تحول ساحة تستقطب كل العلوم التي سخرت مخرجاتها لإثراء هذا الجدل ومحاولة حسمه.

في هذا السياق؛ يأتي اتخاذ اللغة مدخلا لمقاربة هذا الموضوع، من خلال استثمار ما تمثله هذه الملكة بعدها صفة مميزة للإنسان؛ ما يعني أنّ البتّ في سؤال تطورية ملكة اللغة سيمهد الطريق أمام الحسم في مسألة تطورية الإنسان التي تعدّ ركيزة أساسا في هذا الجدل. ويوصلنا هذا الطرح إلى تحديد الإشكالية التي يعالجها هذا المقال ضمن سؤال: كيف يسهم سؤال تطورية ملكة اللغة في ترجيح إحدى كفتي الجدل حول مشروعية نظرية التطور كمرجعية للوعي الوجودي والمعرفي في الفكر الغربي؟

ولأنّ حيز المقال لا يتسع لكلّ أبعاد هذه الإشكالية؛ فقد اقتصر نطاق الدراسة هنا على استحضار نماذج محدّدة قاربت هذا الموضوع من زوايا مختلفة؛ من بينها التفسيران البيولوجي والثقافي لظهور ملكة اللغة، والتصوران التدريجي و "القفزة" حول شكل هذا الظهور. أما الهدف؛ فهو توظيف مخرجات هذه النماذج في تحديد أيّ الموقفين أصوب: الداعم لاتخاذ هذه النظرية مرجعية، أم الرافض لذلك. وقد اقتضت طبيعة هذا الجدل أن يكون المنهج معرفيا يستهدف تحديد الأسس المعرفية التي ينطلق منها كلّ فريق؛ ليخرج

الجدل من متاهة التفاصيل وتعقيداتها إلى المصدر الصحيح لكل موقف، ما ييسر التحليل النقدي لأطراف هذا الجدل. ومن أهم الأدوات التي استعنا بها في تحقيق هذا المنهج: التحليل الذي استُخدم في الكشف عن العلاقة بين الأسس المعرفية و تمظهراتها في نظرية التطور، والمقارنة التي تمت بين النماذج المختلفة التي قاربت هذا الموضوع؛ كالمقارنة بين التفسيرين البيولوجي والثقافي.

وجاءت بنية المقال استجابة لطبيعة الموضوع؛ حيث تمّ تقسيمه إلى مقدمة وخاتمة و ثلاثة عناوين أساس هي: النماذج المعرفية أو كيف يفهم البشر العالم، ومضمونه تقديم المرجعية المعرفية التي يتم التحليل من خلالها، وحمل الجزء الثاني عنوان: ملكة اللغة البشرية: نتاج تطوري أم ملكة إنسانية أصل؟ ويعكس التساؤل هنا الموقفين الرئيسيين من نظرية التطور، حيث تمت مناقشة الموقف الأول من أربعة زوايا هي الفرضية البيولوجية، والفرضية الثقافية، والتصور الدارويني للغة، والتصور اللادارويني لها. ليأتي بعد ذلك العنصر الرابع حاملاً عنوان: نقد النموذج المعرفي للنظرية التطورية أو التصور البديل ليلخص الموقف الثاني من النظرية في ضوء الكشف عن مواضع الخلل في الموقف الأول.

2. النماذج المعرفية أو كيف يفهم البشر العالم:

ننتقل في معالجة هذا الموضوع من الثنائية القرآنية: "الوصل والقطع"؛ الواردة في قوله تعالى: " وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ " ¹، وقوله تعالى: "وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ" ². ونصدر في ذلك عن قناعة مفادها أنّ القرآن الكريم يمثل الصورة اللغوية للنظام الأصل للوجود، ما يعني أنّ السعي للوصول إلى فهم هذا النظام الأصل يمرّ عبر الاستعانة بألفاظه ضمن شبكاته الدلالية في بناء النموذج المعرفي البشري.

¹ الرعد، 23.

² الرعد، 26.

والهدف من هذه النماذج المعرفية هو اتخاذها أطرا تفسيرية؛ يتم ضمنها الفهم الدقيق لكل أبعاد رؤى العالم المختلفة بشكل عام، و الموقف التطوري بعده بارادايما مهيمننا على التفسير الغربي للوجود بشكل خاص. و يقتضي اتخاذ إطار "الوصل والقطع" مرجعية لقراءة النماذج المعرفية، تصنيف هذه النماذج وفق المعيار القرآني الذي تنتجه هذه الثنائية، والذي يحدد البناء الصحيح للمعرفة البشرية على أنه حسيلة لوصل ما أمر الله به أن يوصل، وبالضرورة اجتناب قطع هذا الموصول. ومفاد ذلك أن الوجود قد خلق على هيئة نظام مؤلف من مكونات وعلاقات وفق صورة محددة؛ يقتضي إدراكها بما هي عليه أن يعاد تركيبها في الأذهان بإنزال المكونات والعلاقات منازلها الأصل، وذلك هو الوصل المطلوب، وكل ماعدا ذلك، وإن بدا في ظاهره وصلا، فهو قطع.

ولا ينبغي أن يفهم تصوّر "الهيئة الأصل للوجود" على أنها صورة سطحية جامدة، بل هي نظام حيّ متعدد المستويات؛ تتجلى الحياة فيه في صورة حركة بين الثابت والمتغير، وتحفظ نظاميته قيود تحكم مجال هذه الحركة دون أن تقمع إبداعيتها، أما تعدد مستوياته؛ فيحدد اتجاهات علاقاته أفقيا ورأسيا. ومن هنا؛ فإنّ الوصل الصحيح هو ذلك الذي يراعي كلّ هذه الأبعاد في بناء النموذج المعرفي لدى الإنسان.

3. ملكة اللغة البشرية: نتاج تطوري أم ملكة إنسانية أصل؟

نظرا لكونها خاصية مميزة للجنس البشري؛ تقع اللغة البشرية في قلب الجدل المتعلّق بنظرية التطور عموما وسؤال تطوّر الإنسان بشكل خاص، وهذا الموقع للغة يخولها أن تكون مدخلا للبحث في سؤال تطورية الإنسان، من خلال استكشاف أبعاد سؤال تطورية ملكة اللغة.

وأول مسألة يواجهها المُقبل على هذا الموضوع هو جدل البيولوجي والثقافي في تحديد الأساس الذي انبثقت منه هذه الملكة الفريدة؛ بين متمسك بالأساس البيولوجي وفاء لمبدأ التأصيل الحسيّ لكلّ الظواهر، ومؤكّد على البعد الثقافي بعده مظهر إنسانية الإنسان؛ ما يجعله الأولى بتبني انطلاقة اللغة؛ وفيما يأتي تفصيل لأهم الحجج لدى كلّ فريق منهما:

1.3. فرضية البعد البيولوجي لتطور ملكة اللغة:

يعدّ الأساس البيولوجي – كإطار تفسيري للوجود- حجر الزاوية في بناء المعرفة في الفكر الغربي، والمقصود به التأسيس الحسّي لكلّ البناء المعرفي البشري، وهو بهذا تجسيد للنموذج المعرفي النسبوي لاستبعاده العلم الإلهي – وإن أقرّ بوجوده- كأساس يقيني للمعرفة لديه.

وضمن هذا الإطار، انبثقت مجموعة من الفرضيات الفرعية التي أسست لتفسير ظهور اللغة لدى الإنسان؛ من بينها: الاستعداد الوراثي، و الملكة اللغوية بعدها قدرات حوسبية، والتكيّف الفيسيولوجي المحدّد.

1.1.3. الاستعداد الوراثي:

يعود ظهور ملكة اللغة لدى أصحاب هذه الفرضية إلى كون الإنسان مهياً وراثياً لاكتساب واستخدام اللغة، ومعنى ذلك أنّ هنالك في خريطته الجينية مورّثات مسؤولة عن اللغة، وقد تعرّز هذا التصوّر بعد أن تمّ عزل وتحديد إحدى هذه المورّثات التي عرفت باسم "الجين فوكس ب2" "the FoxP2 gene" الذي عُدّ مسؤولاً عن النموّ الفموي والوجهي، من بين أمور أخرى، وتمّ ربط بعض نسخه المتحوّرة مباشرة بحالة وراثية عرفت باسم "ضعف اللغة الانتقائي" "selective language impairment"، وهي حالة لوحظ انتشارها في عائلة محدّدة تمت دراستها في الثمانينات من القرن العشرين؛ حيث أنّ توالي ظهور هذه الحالة ضمن الأجيال المتعاقبة لهذه العائلة جعل الباحثين يربطونها بوجود سبب وراثي لذلك. لكن تأثير العوامل الوراثية ليس بهذه البساطة، حيث يرجح الباحثون أنّ القدرة اللغوية متعدّدة العوامل الوراثية (polygenetic)؛ مايعني أنها نتيجة للتفاعل بين العديد من المورّثات³.

³ ينظر:

Cuskley, C. (2020, June 12), Language Evolution: A brief overview. <https://doi.org/10.31234/osf.io/3y98j> , 04/06/2025- 21:05, p. 4.

2.1.3. الملكة اللغوية بعدّها قدرات حوسبية:

يرى أصحاب هذا التوجّه أنّ الطبيعة التكرارية (recursive) للملكة اللغوية لدى الإنسان هي الفصيل بين مرحلتي ما قبل اللغة واللغة، وذلك لكونها المسؤولة عن خاصية "الإبداعية" "creativity" التي تتمظهر في فهم و إنتاج عدد غير محدود من التراكيب اللغوية، وقد ميّز (هاوسر) و (تشومسكي)، و (فتش) بين الملكة اللغوية بالمعنى الواسع (FLB)، والملكة اللغوية بالمعنى الضيق (FLN)؛ حيث اعتبروا أنّ الأخيرة متضمنة في الأولى، وأنّ الأولى تضمّ القدرة الحوسبية الحاملة لخاصية التكرارية، وبالإضافة إليها تتضمّن الأولى النظام الحسيّ-الحركي (the sensory-motor system)، والنظام التصوّري-القصدى (the conceptual-intentional system).⁴

ويعزو القائلون بهذا التفسير ظهور هذه الخاصية إلى حدوث طفرة لدى فرد ما؛ مكنته من اكتشاف مفهوم الدمج الذي يعدّ أساس الخاصية التكرارية للغة؛ وذلك باكتساب القدرة على توليد مالا نهاية له من التراكيب من خلال دمج مكوّنات المستوى الأدنى لإنتاج مكوّن في المستوى الأعلى، ثم الأعلى، وهكذا دواليك.⁵

وانطلاقاً من أنّ معايير الانتخاب الطبيعي هي "التصميم المعقّد من أجل وظيفة معيّنة، وغياب عمليات بديلة قادرة على تفسير هذا التعقيد".⁶ يحكم "س. بنكر" "Steven. Pinker" و "ب. بلوم" "Paul Bloom" بأنّ اللغة البشرية تحقق هذا المعيار

⁴ ينظر:

Hauser, M. D., Chomsky, N., & Fitch, W. T. (2002). The Faculty of Language: What Is It, Who Has It, and How Did It Evolve? *Science*, 298(5598), 1569–1579.
https://doi.org/10.1126/science.298.5598.1569.p.1569.

⁵ ينظر:

- Bolhuis JJ, Tattersall I, Chomsky N, Berwick RC, (2014), How Could Language Have Evolved? Op. Cit., pp. 1-3.

- Ivor Janković & Tena Šojer, (2013/2014 [2015]), The Evolution of Speech and language, Op. Cit., p. 14.

⁶ Pinker, S. & Bloom, P. (1990), Natural Language and Natural Selection, Behavioral and Brain Sciences (1990) 13, 707-784, USA: Cambridge University Press, p. 707.

انطلاقاً من أنّ "النحو آلية معقّدة صُمّمت لنقل البنى القضوية* (propositional structures) عبر وجهة متسلسلة** (serial interface) "7؛ والنحو هنا بمعنى الملكة اللغوية (FLN)؛ فكونه معقّداً وله وظيفة محدّدة هي تحقيق التواصل من خلال نقل المعلومات عبر السلاسل الصوتية يؤكّد – وفقاً لـ "بنكر" و "بلوم" – الموقف القائل بأنّ ملكة اللغة نتاج للانتخاب الطبيعي بالمعنى النيودارويني (الداروينية الجديدة)8.

وجعل التعقيد والوظيفة المحدّدة معيارين لاستحضار الانتخاب الطبيعي كإطار تفسيري مرتبط بالمنظور التدريجي؛ حيث أنّ جوهر الانتخاب الطبيعي قائم على مبدأ الاحتفاظ بالتغيرات المفيدة والتخلّص مما سواها، والتعقيد بهذا المعنى تراكمٌ لسلاسل من التغيرات التي لا يمكن أن تخدم هدفاً محدّداً لولا أنّها تمت ضمن انتخاب قائم على الفائدة.

3.1.3. التكيّف الفيسيولوجي المحدّد:

لا يقتصر الأمر في التفسير الفيسيولوجي على الصوت فقط، بل يتعدّاه إلى كلّ ماله علاقة بالملكات الضرورية للغة؛ كحجم الدماغ، والإيقاع الحركي الذي تطلبه وظائف مثل مهارات حركة اليدين لأداء مختلف الوظائف اليومية، بالإضافة إلى الاستعداد

* "البنى القضوية" تعبير عن المضمون أو المحتوى الذي تحمله التراكيب اللغوية؛ فهي قضايا متعلقة؛ ما يعطها هيئة بئي.

** مصطلح الوجهة، مصطلح شائع في الكثير من العلوم؛ كالبيولوجيا، وقد استخدمه المشروع التوليدي في اللسانيات، و يطلق على الكيان الوسيط بين كيانين بهدف ربطهما بعلاقة انسجام، بسبب عدم إمكانية ارتباطهما المباشر، ويعدّ النظامان الحسي- الحركي، والتصوري-القصدي كوسيطين بين الملكة اللغوية والبيئة الخارجية في الإطار التوليدي تجسيدا لهذا المفهوم. ويبدو أنّ المقصود بالوجهة المتسلسلة هنا هو الأصوات اللغوية ذات الطبيعة الخطية بالمفهوم السوسيوي.

7 Pinker, S. & Bloom, P. (1990), Natural Language and Natural Selection, Op. Cit., p. 707.

8 ينظر:

Ibid, p. 708.

الحسّي الذي يعدّ المشي منتصب القامة على قدمين، والإحساس بالاتجاهات أهم مظاهره.⁹

2.3. فرضية البعد الثقافي لتطور ملكة اللغة:

تمثّل الثقافة بعدها "جسماً معقّداً من التقاليد"¹⁰ "كعب أخيل" النظرية التطوّرية؛ لكونها أكثر ما يمثّل الجانب الإنساني في الإنسان من ناحية، ولأنّها فجوة تفسيرية في المشروع التطوّري، الذي سعى جاهداً للتمسّك بمبدأ الأصل المشترك بين الإنسان والرئيسيات على أقل تقدير، إلا أنّ البعد الثقافي للإنسان استعصى على الانسجام مع هذا الإطار التفسيري؛ نتيجة لخصوصيته الناتجة عن كونه المظهر الأساس لانفصال النوع الإنساني عن أصله المشترك- وفقاً لفرضيتهم- من ناحية، ولتميّز طريقة انتقاله عبر الأجيال من ناحية أخرى؛ إذ في مقابل الانتقال الوراثي للخصائص البيولوجية، يتمّ نقل الثقافة "بوساطة التعليمات، والإرشاد، والتقليد، والتعلّم"¹¹.

وتتخذ الملكات الفكرية ذاتها هيئة هرمية في التصور الدارويني؛ فهي لاتتساوى في الأهمية، وبالتالي في مرتبتها في المسار التطوّري للنظام الفكري عموماً. وهذا التصوّر ينسجم مع مبدأ التدرّج في التطوّر الذي يؤطّر نظرة أحد فريقَي التطوّرين كما سبق شرحه أعلاه.

وتتموضع ملكة اللغة في هذا النموذج ضمن الملكات الفكرية العليا التي ظهرت كنتيجة مباشرة لتطوّر قدرات أدنى؛ مثل "الملاحظة، والذاكرة، والفضول، والتخيّل،

⁹ ينظر تفصيل الجوانب الأخرى في:

Wolfgang, W. (2004), The Evolution of Human Language: Scenarios, principles, and cultural dynamics, John Benjamins Publishing Co. Amsterdam. The Netherlands-Philadelphia. USA. pp. 6-15.

¹⁰ Dobzhansky, Theodosius, (1960), The Biological Basis of Human Freedom, Second printing, New York: Columbia University Press, p. 9.

¹¹ Ibid, p.10.

والعقل^{12*}، ويصف "دارون" ظهور اللغة بأنها خطوة عظيمة في تطوّر الفكر، معتبرا أنّ الاستخدام المستمرّ لها سيكون له تأثير على الدماغ وينتج تأثيرا وراثيا، وهو ماسيؤثر بدوره على تطوير اللغة، بل إنّه ينسب كبر حجم الدماغ لدى الإنسان بالنسبة إلى جسمه، مقارنة مع الحيوانات الأدنى، إلى الاستخدام المبكر لشكلٍ بسيطٍ من اللغة، باعتبارها محرّكا يربط العلامات مع كلّ أنواع الأشياء والخصائص، ويحفّز أشكالاً من الفكر التي لم يكن من الممكن أن تنشأ من مجرد انطباعات حسّية، وإن نشأت فلن يكون ممكنا متابعتها¹³. ويكشف هذا الوصف عن تصوّر لعلاقة تفاعلية بين اللغة بعدها تفكيراً رمزياً مجرداً، والدماغ باعتباره بنية فيزيائية متغيّرة نتيجة لحركة اللغة، ثم ينعكس تغيّر هذه البنية بدوره على حركة اللغة، وهكذا دواليك.

إن ارتباط الثقافة بالدماغ البشري، أرسى ركيزة حسّية لدى التطوّرين؛ يطمنون إليها في سعيهم المحموم لرصد ظاهرة الثقافة المتفلّته من معاييرهم الحسّية؛ ولتحقيق ذلك اتخذوا من تغيّر الخصائص الفيزيائية للدماغ - وعلى رأسها الحجم- معياراً لتحديد لحظة انبثاق الثقافة بعدها نتاجاً لمجموع الملكات المعرفية التي تمثّل نقطة التقاء الأجزاء المختلفة من الدماغ.

ولذلك نجد حضور حجم الدماغ في العديد من السياقات التطورية المتتبعة لمسار الجنس البشري عموماً، والمسار الثقافي على وجه الخصوص. ويمكن النظر إلى

* نستخدم هنا لفظة "عقل" ترجمة لمصطلح "raison" بوصفه "ملكة تركيب المفاهيم و القضايا والعبارات والمقترحات"، لا بوصفه مجموع الملكات المعرفية لدى الإنسان، لأنّ ذلك لا يتّسق مع موقعه المفترض ضمن تصوّر الدارويني في أسفل هرم الملكات الفكرية. ترجمة المصطلح وتعريفه مأخوذان عن: لالاند، أندريه. (2001)، موسوعة لالاند للمصطلحات الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، الطبعة الثانية، بيروت-باريس، منشورات عويدات، مج3، ص ص 1159-1160.

¹² Darwin, Charles, M. A., (1889), Descent of man and selection in relation to sex, new edition, revised and augmented, D. Appleton and Company, New York, p. 49.

¹³ ينظر:

Darwin, Charles, M. A., (1889), Descent of man and selection in relation to sex, Op. Cit., p. 610.

وصف "دوسهانسكي"، الذي لخص به المسار التطوري للإنسان وفق المقاربة التطورية، على أنه تجسيد لتلك الركيزة؛ حيث نجده يؤكد أن دماغ الإنسان "... كان كبيراً جداً مقارنة مع جسده، وجعله [ذلك] قادراً على التفكير المجرد. هذه القدرة الأخيرة جعلت من الممكن تطور اللغة. اللغة يسّرت مراكمة ونقل مجموعة من السلوكات والتقاليد المتعلّمة المعروفة باسم الثقافة. تأثير الثقافة على نمط تطور النوع الإنساني حدّث، بالتالي، عن طريق سبب بيولوجي... [هذا يعني أن] تطور الثقافة أصبح القوة التطورية المهيمنة في النوع الإنساني. مع ذلك، [فإن] بدايته وتطوره أصبح ممكناً فقط بسبب الهيبة البيولوجية الفريدة، الطراز الجيني (الورثي)".¹⁴

ومفتاح الثقافة هنا هو "التعلّم" كإحدى المظاهر الرئيسة لانتقال المعلومات بين الأفراد، و بين الأجيال المتعاقبة، والأداة الأساس في ذلك كما يبيّنه "دوسهانسكي" هي اللغة، وهذا هو حجر الزاوية في التفسير الثقافي لتطور ملكة اللغة.

في هذا الإطار؛ تكون ملكة اللغة نتاجاً منطقياً لسلسلة من عوامل الانتخاب الطبيعي بما هو نزوع نحو الاحتفاظ بالتغيرات المفيدة، والتخلّص مما لافائدة منه، والعمل الجماعي بهذا المعنى مفيد؛ لكونه قائماً على "التعاون" "cooperation"¹⁵ بشتى مظاهره: بدءاً من تنسيق عملية صيد جماعي، ووصولاً إلى تلقّي الأحفاد لـ "حكمة" الأجداد، وكلّ مايسّر هذا "التعاون" ويزيد من فاعليته من تغيّرات وطفرات سيحمل وصف الفائدة، وبالتالي؛ يحظى بتفضيل الانتخاب الطبيعيّ له. ومن هنا، انبثقت اللغة؛ سواء أكانت ملكة كاملة النضج في لحظة ظهورها نتيجة لطفرة حاسمة، أم بدأت نظاماً بدائياً من الإشارات والمحاكاة لتتدرج نحو النضج ؛ نتيجةً لتراكم كمّ هائلٍ من التغيّرات التي حدّدت "الفائدة" وجهتها.

¹⁴ Dobzhansky, Th., (1960), The Biological Basis of Human Freedom, Op. Cit., pp. 55-56.

¹⁵ ينظر:

Sterelny, Kim, (2016), Cumulative Cultural Evolution and Origins of Language, Biol Theory, Volume 11, pages 173–186, (2016), p. 174. DOI 10.1007/s13752-016-0247-1 13/08/2025 22:04, p. 175.

ويحسم أصحاب هذا الموقف جدل الأوليّة بين البيولوجيا والثقافة فيما يتعلّق بظهور اللغة، لصالح الثقافة؛ محتجّين بأنّه حتى وإن كان التغيّر – طفرة أو تراكما- بيولوجيا، إلّا أنّ وجود النظام التواصلّي سابقاً على اختياره في مقابل تغيّرات أخرى ضمن الانتخاب الطبيعي.¹⁶ وفي مقابل فرضية تطور الملكات المعرفية وعلى رأسها الإرادة الحرّة نتيجة لحدوث تغيّرات في بنية الدماغ، يرى القائلون بالأصل الثقافي للتطوّر أنّ استخدام القوالب الداخلية للدماغ "inner templates" تم انطلاقا من كونها تمثيلات صريحة لكلّ من؛ غاية فعلٍ ما، وبنية تسلسل ذلك الفعل، بهدف الشروع والتحكّم في سلسلة من الأفعال الحركية المعقّدة.¹⁷ بمعنى أنّ الإنسان صار قادرا على أن "يتخيّل" القيام بالفعل ذهنيا قبل القيام به عملياً، وذلك "التخيّل" هو عمليات ذهنية يتمّ فيها تحديد بنية تسلسل مراحل القيام بالفعل بالإضافة إلى الغاية منه. ومن الطبيعي أنّ هذه العمليات تتطلّب بنية ذهنية متطوّرة، وتزداد تطوّرا كلّما ازدادت الأفعال المراد إنجازها تعقيدا. لكن ذلك لايجيب على سؤال الأوليّة بقدر مايفتح الباب أمام تساؤلات أخرى، مثل؛ طبيعة هذه العمليات الذهنية.

ويمثّل البعدان البيئي والمعرفي بهذا المعنى أساسا لظهور ملكة اللغة؛ حيث يدلّ التعقيد المطّرد للأفعال على التطوّر التقني؛ الذي يعدّ التعلّم أحد روافده من خلال إسهامه في إنشاء تراكم معرفي يوسّع أفق التطوّر بدل أن يغرق في دوامة التكرار، كما أنّ هذا التعقيد يدلّ على وجود "التعاون" الذي هو ثمرة التواصل بين أفراد المجموعة الواحدة أو بين المجموعات. واللغة، كما ذكر أعلاه، هي الأداة الرئيسة للتواصل والتعليم في وعبر الزمن. أما تطوّر الملكات المعرفية؛ فهيّ البيئة الذهنية للانتقال بالدماغ إلى مرحلة الملكة اللغوية بما تتطلّبه من قدرة على التجريد والتفكير الرمزي.

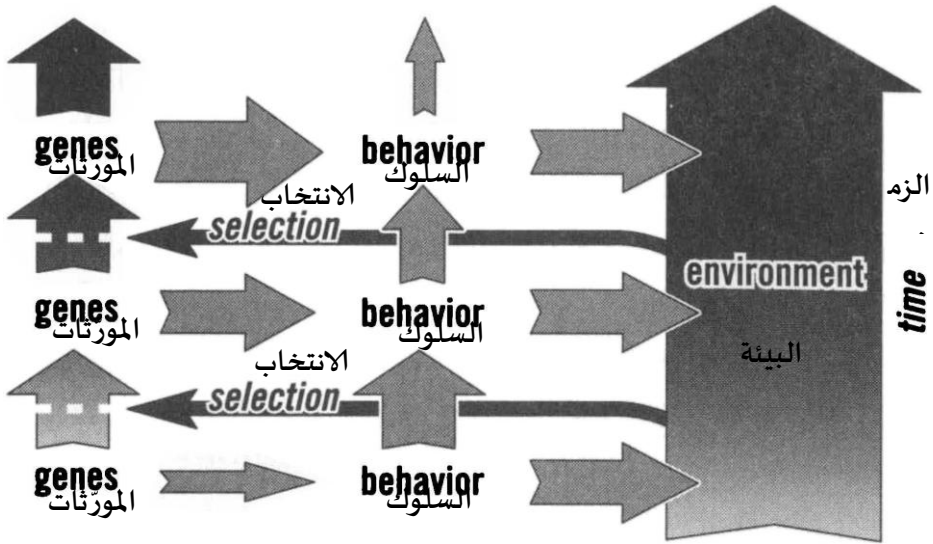
¹⁶ ينظر:

Ibid.

¹⁷ ينظر:

Sterelny, Kim, (2016), Cumulative Cultural Evolution and Origins of Language, Op. Cit., p. 177.

وفي سياق التركيز على دور التعلم كعامل أساس للتطور، جعله عالم النفس "ج. م. بلديون" "James Mark Baldwin" إحدى ركيزتين لما عُرف باسم "التطور البلديوني" "Baldwinian evolution"، وكانت ركيزته الثانية هي "المرونة السلوكية" "behavioral flexibility"، حيث اعتبر أنّ هذين العاملين من الأهمية في توجيه عملية التطور، أنهما قادران على تضخيم و تحريف تأثير الانتخاب الطبيعي، وذلك من خلال تمكين الأفراد من تعديل سياق الانتخاب الطبيعي الذي يؤثر في الأجيال اللاحقة. حيث تمكّن المرونة السلوكية الكائنات الحيّة من التحرك نحو مواقع تختلف عن تلك التي شغلها أسلافها، وينتج عن ذلك أنّ الأجيال اللاحقة ستواجه مجموعة جديدة من الضغوط الانتخابية، ولا يعني ذلك أنّ التغيرات التي قد تحدث لدى فرد معيّن خلال حياته نتيجة لاستجابته لمثيرات بيئية معيّنة ستظهر بالضرورة في ذريته المباشرة، وفي ذلك نأى عن التفسير الحتماني الميكانيكي لهذه الظاهرة¹⁸. والمخطط (1) يلخص تصوّر التطور البلديوني:¹⁹



18 ينظر: الاستمرارية الفيزيائية الانتقالي الاجتماعي الانتقالي الوراثي
Deacon, Terrence W. (1997), The Symbolic Species: The Co-evolution of language and the Brain, Transmission & Socially, Transmission Physical Persistence
and the Brain, Transmission & Socially, Transmission Physical Persistence

19 Ibid, p.323. والعنوان بتصرف.

المخطط (1). التطور البلديوني (Baldwinian Evolution)

يلخص المخطط (1) العوامل المنتجة للتطور وفق التصور البلديني، الذي لا يختلف كثيرا عن التصور الدارويني؛ حيث يحدث التطور نتيجة لتفاعل ثلاثة عناصر هي: البيئة، والسلوك، والمورثات. ويدل الاتجاه العمودي للأسهم على تغير العناصر؛ فالبيئة تتغير عبر الزمن، والسلوك من خلال التعلم، أما المورثات؛ فتتغير من خلال الطفرات الوراثية. ويرمز السهمان المتجهان يسارا لتأثير البيئة في المورثات من خلال الانتخاب الطبيعي، في حين تشير الأسهم المتجهة يمينا إلى تأثير كل عنصر فيما يليه: المورثات في السلوك، والسلوك في البيئة. ويدل حجم السهم على حجم التغير أو التأثير؛ فتأثير السلوك في البيئة ثابت، في حين أنّ تأثير المورثات في السلوك يتزايد بتوالي الأجيال، وفي المقابل، يتناقص تأثير التعلم في تلك الأجيال بسبب التأثير المتزايد للمورثات²⁰. والخطوة الحاسمة في هذه التفاعلات هي انتقال السمة المقصودة من السلوك إلى المورثات، أو بعبارة أخرى: تحول السلوك المكتسب إلى سلوك فطري، وهو ما يدعى: الاستيعاب الوراثي "genetic assimilation"، ولحدوث هذا التحول؛ يرى الباحثون²¹ أنّه لابدّ

²⁰ ينظر:

Deacon, Terrence W. (1997), *The Symbolic Species*, Op. Cit., p.323.

والمثال الشهير الذي يُستشهد به في هذا السياق، هو ظاهرة القدرة على هضم اللاكتوز (سكر الحليب) "lactose tolerance" لدى الإنسان؛ حيث لوحظ أنّ البشر القادرين على تحلل هذه المادة هضميا، هم أولئك الذين نشأوا في بيئة تتمّ فيها تربية ماشية الحليب منذ فترة طويلة، ما يجعل الحليب أحد المصادر الرئيس لغذائها، في حين أنّ الذين نشأوا في بيئة لم تظهر فيها هذه الممارسة إلا حديثا، أو أنّها غير موجودة فيها تماما؛ فيعانون من عدم القدرة على التعامل الهضمي مع هذه المادة؛ فاستدلّ بهذا على أنّ سلوك الإنسان بتربية تلك الماشية غير أثر الانتخاب الطبيعي ممثلاً في عدم تهيئة الجسم البشري لتحمل هذا النوع من العناصر الغذائية. ينظر:

Ibid, p.323-324.

²¹ ينظر:

من توفّر شرطين اثنين: أولهما عدم تغيّر الخاصية المقصودة لفترة طويلة من الزمن، وثانيهما هو أن تفرض الخاصية المقصودة على البنى العصبية المرتبطة بها عدم التغيّر أيضا.

وإذا أسقطنا هذا التصوّر على اللغة؛ فإنّ إمكانية حدوث الاستيعاب الوراثي للغة؛ بمعنى تحويلها – أو على الأقل جزء منها وفقا لنظرية النحو الكلي- من سلوك إلى خاصية وراثية يستدعي أن تفرض المبادئ اللامتغيرة للمشكلة للنحو الكلي على العمليات الحاسوبية العصبية المرتبطة بها أن تكون غير متغيرة أيضا، ومعنى ذلك أن تعالج الخصائص اللغوية التي تعبّر عنها هذه المبادئ دائما بنفس الطريقة في كلّ الأدمغة وفي كلّ الظروف، ويشمل ذلك الخصائص الحسية الحركية، والخصائص الذاكرية²².

3.3. ملكة اللغة بين الداروينية واللاداروينية:

وفي امتدادٍ للنموذج المعرفي الممثل لجدل نظرية التطوّر، ينقسم سؤال تطوّر ملكة اللغة إلى شقين رئيسيين يعكسان النموذجين المعرفيين المسؤولين عن رؤية العالم لدى البشر. ويمثّل شقّ السؤال احتماليّ جوابه؛ الذي تختصره صيغة السؤال بالشكل الآتي: هل اللغة البشرية نتاج لعملية التطور بالمعنى العام الذي تتصوره نظرية التطوّر بمرحلتها الداروينية والداروينية الجديدة؟ أم أنها ملكة أصل في الإنسان بعدّه مخلوقا أصيلا كما يحتاج رافضو نظرية التطوّر؟

وسيكون تركيزنا في هذا الجزء منصبا على استكشاف حدود الإجابة على الشقّ الأول من السؤال، ثمّ محاولة استنتاج دوره في الإجابة على الشقّ الثاني.

ويحدد تتبع مسار الإجابة على هذا السؤال هندسة هذا العنصر؛ حيث ينقسم إلى

Ibid, p.329.

²² ينظر:

Deacon, Terrence W. (1997), The Symbolic Species, Op. Cit, p.330.

قسمين رئيسين يستكشف كل قسم شقًا من السؤال، مع إتاحة المجال لما يقتضيه النقاش من وجود عناوين فرعية لكل شق، تتولى الإحاطة بتفاصيل العنوان الرئيس:

1.3.3. ملكة اللغة البشرية نتاج تطوّري وفق التصوّر الدارويني :

لقد نتج عن تمدّد نظرية التطوّر خارج البيولوجيا نحو أبعاد أخرى للإنسان، ظهور حقول معرفية جديدة منبثقة عن أصول أكاديمية معروفة؛ فظهر علم النفس التطوّري، وعلم الاجتماع التطوّري، واللسانيات التطورية، والأنثروبولوجيا التطورية، والاقتصاد التطوّري، والأركيولوجيا التطورية²³، والأدب الدارويني²⁴، بالإضافة إلى التوظيف السياسي للتداعيات المفهومية لهذه النظرية في تبرير العديد من الممارسات المثيرة للجدل مثل: الاستعمار الغربي لأجزاء واسعة من العالم²⁵.

وليست هذه الشبكة من التداخلات المعرفية سوى مظهر من مظاهر الهوية الأصل للمعرفة البشرية، وهو ما يعبر عنه اليوم بمصطلح "العلوم البينية" (interdisciplinary sciences)، الذي يعاد اكتشافه من جديد، بعد أن طغت عليه مزاعم التخصص الدقيق التي أسيء فهمها؛ فأنتجت بناءات معرفية متشظية يغلب عليها القُطْع، ليغيب عنها الصورة الكلية التي ينتجها الوصل الصحيح.

وبهذا المعنى؛ تمثل اللسانيات التطورية المدخل اللغوي لاستكشاف سؤال التطوّر من حيث حدوثه، لأن ذلك ليس محلّ إجماع لدى باحثيها، ومن حيث أسباب وكيفية حدوثه. وهي في مسعاها هذا علم بينيّ ترفده مجالات معرفية أخرى ويرفدها؛ في

²³ Dobzhansky, Theodosius, (1960), The Biological Basis of Human Freedom, Op. Cit., pp. 55-56.

²⁴ ينظر:

Kramnick, Jonathan, (Winter 2011), Against Literary Darwinism, Critical Inquiry, Vol. 37, No. 2 (Winter 2011), pp. 315-347 Published by: The University of Chicago Press. Stable URL: <https://www.jstor.org/stable/10.1086/657295>. 19/06/2025. 19:22.

²⁵ ينظر:

Dobzhansky, Theodosius, (1960), The Biological Basis of Human Freedom, Op. Cit., pp. 57,59-60.

الإشكاليات والمنهج والنتائج. ومن بين هذه المجالات: "اللسانيات العامة، وعلم النفس، والبيولوجيا، والأركيولوجيا، وعلم الأنظمة المعقدة (complex systems science) من بين علوم أخرى".²⁶

ويتبنّى أصحاب التصوّر التطوّري للغة الإطار العام لنظرية التطوّر؛ الذي اختصرته عبارة (دوسهانسكي) الشهيرة: " لاشيء في البيولوجيا ذو معنى إلا في ضوء التطوّر"، ومقتضى ذلك؛ أنّ ملكة اللغة لم تكن موجودة لدى الإنسان في البداية، ولم تظهر إلا في مرحلة لاحقة نتيجة لعملية التطوّر. والإجماع لدى التطوريين حول تطوّر ملكة اللغة يلازمه اتفاق حول انفراد الجنس البشري بهذه الملكة، ويقابله اختلاف في تحديد الزمن والكيفية و الأسباب التي أدت إلى ظهور اللغة كجزء من المسار التطوّري للنوع الإنساني بشكل عام.²⁷

فأما الزمن؛ فلم يحظ بتحديد دقيق، حيث تعدّدت الآراء وتشعبت بشأن زمن ظهور اللغة لدى الإنسان، لتستقر على تحديد مجال ذلك بحصره بين مليونيّ ومائتي ألف سنة خلون من الزمن.²⁸ وأما الأسباب والكيفية؛ فسنفصل فيهما فيما يأتي:

²⁶ Cuskley, C. (2020, June 12), Language Evolution: A brief overview. Op. Cit., p. 2.

²⁷ ينظر:

Cuskley, C. (2020, June 12), Language Evolution: A brief overview. Op. Cit., p. 3.

وحول السبب ينظر:

Gontier, Nathalie, (2012), Selectionist Approaches in Evolutionary Linguistics: An Epistemological Analysis, International Studies in the Philosophy of Science, 26:1, 67-95. <http://dx.doi.org/10.1080/02698595.2012.653114>. 18/06/2025. 20:44. p. 67.

²⁸ ينظر:

1.1.3.3. اللغة المفيدة المتدرّجة:

وينبثق هذا التصور عن المنظور الدارويني لشكل التطوّر؛ والذي يراه عملية متدرجة تتراكم فيها نتائج الانتخاب الطبيعي حتى تتحوّل إلى خاصية جديدة.

و الفكرة الأساس الناتجة عن إسقاط هذا النموذج على اللغة، هي أن لغة الإنسان في أوّل عهدها لم تكن بالهيئة التي هي عليها اليوم، وهذه الفكرة هي عماد مذهب أصحاب التصور التدريجي، ومن بينهم "فيتش" "Fitch"، وبناء على ذلك؛ يميّز هؤلاء، على الأقل، بين مرحلتين أساسيتين في مسار تطوّر ملكة اللغة؛ حيث افترضوا أنها اتخذت في مرحلتها الأولى صورة "اللغة البدائية (الأولية)" "protolanguage" وهي أقرب إلى أنظمة التواصل الحيوانية²⁹، في حين بلغت في المرحلة الثانية ذروة نضجها محققة الشكل الذي هي عليه اليوم. أما طبيعة "اللغة البدائية"؛ فقد انقسموا بشأنها بين مفترض بأنها كانت محض إشارات أو يغلب عليها الشكل الإشاري، ومن هؤلاء "كوربليس" "Corballis"، و بين معتبر أنها كانت توليفا بين الكلام والإشارات، مثل "كندن" "Kendon"، وهو الرأي الغالب. وفيما يتعلّق بهندستها الداخلية؛ فقد افترض أنها كانت شبيهة إلى حدّ كبير بلغة الطفل والقرّة المدرّبة؛ حيث اتّسمت بنطاقٍ محدودٍ من المفردات، وبالتركيز على استخدام المعاني المرتبطة بالأشياء الحسّية، و غلبة الأفعال (actions)، و الصفات (attributes) عليها، كما اتّسمت بترتيبٍ حرٍّ نسبياً لمكوّنات الجملة.³⁰

Cuskley, C. (2020, June 12), Language Evolution: A brief overview. Op. Cit., p. 3.

²⁹ ينظر:

Ivor Janković & Tena Šojer, (2013/2014 [2015]), The Evolution of Speech and language, Opusc.archaeol. 37/38, 11-48, 2013/2014 [2015]. doi: 10.17234/OA.37.1, 23/06/2025 20:34, p.13.

³⁰ ينظر:

Cuskley, C. (2020, June 12), Language Evolution: A brief overview. Op. Cit., p. 3.

ومن أهم الحجج التي يسوقها أصحاب التصوّر التدريجي لدعم افتراضهم، ماتقدمه اللسانيات التاريخية، ودراسات التغير اللغوي من مادة تتركّس الطبيعة المتغيرة للغة عبر الزمان والمكان، والشاهد هنا، أنه إن كانت اللغة تتغير الآن؛ فلا بدّ أنها كانت تتغير منذ البداية³¹، وهذا التوجّه في الاحتجاج يستمدّ قيمته من التوجّه العام الذي أورده "دوسهانسكي"³²، والذي يرى أنه يمكن الحكم بمشروعية فرضية وقعت خارج مجال الإدراك اعتمادا على وجود نماذج مصغّرة عنها تقع في مجال الإدراك.

2.3.3. ملكة اللغة في التصوّر اللادارويني: الملكة الطفرة أو اللغة المستحيلة

إذا كانت المقاربات السابقة لظهور ملكة اللغة على اختلافها تنطلق من مرجعية واحدة؛ هي مبدأ "الانتخاب الطبيعي" الذي يفسّر هذه الظاهرة ضمن إطار تفضيل التغيرات المفيدة؛ فإنّ اتجاهها آخرى أنّ هذه المرجعية غير قادرة على تقديم التفسير الصحيح لانبثاق اللغة ضمن المسار التطوري للإنسان، وبالرغم من اتفاقه في هذا المنظور العام، إلا أنّ لكلّ فريق ضمن هذا الاتجاه تصوّره الخاص في تبرير موقفه، ونشير في هذا السياق إلى رأيين اثنين يعدّان نموذجين لهذا الإطار:

1.2.3.3. التطوّر القفزة* (Saltation evolution):

يؤسّس القائلون بهذا التصوّر موقفهم على الفكرة المقابلة للفكرة الأساس لدى

³¹ ينظر:

Ibid.

³² ينظر:

- Dobzhansky, Theodosius, (1960), The Biological Basis of Human Freedom, Op. Cit., p.7.

- Dobzhansky, Theodosius, (Mar., 1973), Nothing in Biology Makes Sense Except in the Light of Evolution. The American Biology Teacher, Vol. 35, No. 3 (Mar., 1973), p. 125. National Association of Biology Teachers.

<http://www.jstor.org/stable/4444260> Accessed: 15/06/2025 21:28.

* لم نجد ترجمة دقيقة لهذا المصطلح؛ فاعتمدنا الترجمة المعجمية بشكل تقريبي.

أصحاب التصوّر التدريجي، وهي فكرة التماثل بين صورتَي اللغة؛ في أول ظهورها وفي هيئتها الحالية، وبعبارة أخرى: مفاد هذه الفكرة أنّ اللغة كانت في لحظة بدايتها بنفس النضج الذي تتسم به لدى الإنسان المعاصر، ويسوق أصحاب هذا الرأي³³ مبدأ "الدمج" "merge" حجةً لهم في تبرير هذا التصوّر؛ حيث يرون أنّ بساطة هذه العملية لاتتطلب حيّزاً زمنياً كبيراً، ولا مساراً تدرجياً عكس التعقيد الموجود في الموقف الأول.

وبانتفاء مفهوم التدرّج نتيجة للاعتقاد الوحدوي، يحلّ محلّه – منطقياً- مفهوم القفزة أو الانبثاق أو الطفرة بالمعنى البيولوجي؛ الذي يرى أنّ بداية اللغة كانت في لحظة واحدة فارقة أشبه بالقفزة بين طوّرين، ومن أهم القائلين بهذا التصوّر نجد "تشومسكي" و"برويك"³⁴.

ويضيف "تشومسكي" أنّ هذه الطفرة حدثت بشكل فوري لدى فرد واحد من الرئيسيات، ربما بعد وابل من الأشعة الكونية* التي تسببت في إعادة هندسة الدماغ لدى هذا الفرد³⁵، ويتّخذ "تشومسكي" من السمتين المميزتين لهذه الملكة، وهما كونها رقمية وغير منتهية (digital and infinite) حجةً لرفض المنظور التدريجي؛ حيث يرى أنّ الإطار التدريجي يتضمّن مراحل وسيطة، ولا يمكن القول بوجود هذه المراحل بين ذهن قادر على

³³ ينظر:

Sterelny, Kim, (2016), Cumulative Cultural Evolution and Origins of Language, Op. Cit., p. 174.

³⁴ ينظر:

Bolhuis JJ, Tattersall I, Chomsky N, Berwick RC (2014), How Could Language Have Evolved? PLoS Biol 12(8): e1001934. Doi: 10.1371/journal.pbio.1001934, 04/08/2024 21:50, pp. 1-2.

* ينبّه "تشومسكي" إلى أنّ هذا التفسير ليس مقصوداً بحرفيته، وإنما هو إشارة إلى عامل غامض أيا تكن طبيعته؛ فهو أقرب إلى التصديق مما يدّعيه التدرّجيون حسبّه. ينظر:

Chomsky, N., (2000). The Architecture of Language. (First Published), India: New Delhi, Oxford University Press, p.4.

³⁵ ينظر:

- Ibid.

-Knight, C. (2016), Puzzles and mysteries in the origins of language, Language & Communication 50 (2016) 12–21, Elsevier Ltd, p.13.

<http://dx.doi.org/10.1016/j.langcom.2016.09.002> 07/07/2025 11:40.

إنتاج نطاق محدود من التعابير، وذهن قادر على إنتاج نطاق غير محدود منها، لأنّ أي جزء من اللامنتهي ليس جزءاً على الإطلاق، وأنّ المفاهيم المجردة هي كالأرقام لا يمكنها أن تتطوّر؛ ما يعني أنّ الملكة اللغوية قد وُجدت دفعة واحدة في هيئة تامّة³⁶.

2.2.3.3 اللغة مجانية كاذبة:

ينطلق هذا الموقف من سؤال: لماذا لا تتطابق القدرات التصرّية لدى الحيوانات مع المحتوى التواصلّي للعلامات الصوتية والبصرية؛ حيث لوحظ غنى البنية التصرّية لدى هذه الكائنات في مقابل محدودية النظام التواصلّي لديها؛ بمعنى أنها تملك تصورات لمفاهيم مثل صلات القرابة، وعلاقات الهيمنة داخل مجموعتها، لكنها - عكس الإنسان- لا تستطيع التعبير عن هذه المفاهيم في نظامها التواصلّي³⁷.

والتفسير الذي يقدّمه هذا الفريق هو أنّ قيمة النظام التواصلّي تكمن في مصداقيته، وأنّ مصدر هذه المصداقية هي الكلفة (the cost) التي تدفعها أطراف العملية التواصلية، و الكلفة هنا هي محدودية مجال العلامات التواصلية* (finite)، بالإضافة إلى

³⁶ ينظر:

- Knight, C. (2016), Puzzles and mysteries in the origins of language, Op. Cit., pp. 13, 20.

- Chomsky, N. (2015), Powers and Perspectives: reflections on human nature and the social order, (2nd ed.), Canada: union labor.

[https://annas-archive.org/slow_download/0bcdd18bb53de40ce72966a3264510c1/0/09/08/2025 13:46](https://annas-archive.org/slow_download/0bcdd18bb53de40ce72966a3264510c1/0/09/08/2025%2013:46).

³⁷ ينظر:

Knight, C. (2016), Puzzles and mysteries in the origins of language, Op. Cit. p. 15.

* لا تنطبق سمة "المحدودية" على كلّ الأنظمة التواصلية الحيوانية؛ فبعض أنواع الطيور تميّز أغانيها بقدرة تركيبية غير محدودة، لكن يقابل ذلك غياب المعنى؛ حيث أن التعقيد التركيبي لديها مقصود لذاته كخاصية تزاوجية جاذبة، في حين تجمع اللغة البشرية بين التعقيد التركيبي والتوليف الدلالي، وهذه سمة أخرى تكرّس تميّزها. ينظر:

Ibid, pp. 16-17.

كونها تناظرية** (analogic)، في مقابل لامحدودية (infinite) ورقمية (digital) اللغة البشرية. ذلك أن المحدودية والتناظرية تجعلان معايير تقييم العملية التواصلية أكثر دقة ما يرفع مصداقيتها، في حين تتيح اللامحدودية والرقمية هامشا كبيرا يبعد عملية التقييم عن الدقة مما يخفض مستوى المصداقية في مقابل الشك. ولأنّ النظام التواصلية لدى الحيوانات مرتبط ببلغة الجسد، بما في ذلك الصوتي منه، في حين أنّ اللغة البشرية قائمة على الذهن وإن كانت تستعين ببلغة الجسد؛ فإنّ الأول مُكَلَّفٌ وفيه إسراف، والثانية في جوهرها مجانية، وهذا يفسّر عجز مبدأ الانتخاب الطبيعي عن تفسير ظهور اللغة البشرية، لأنّ التنافس وحتى التعاون يرتبطان بالمصداقية ودقة التقييم، في حين أنّ اللغة البشرية ترتبط بالفعالية (efficacy) والسرعة؛ من خلال اعتمادها على الرقمية التي تهمل المراحل البينية، واللامحدودية، والمظهر النطقي-السمعي الذي ييسّر عملية التواصل في ذاتها من خلال قلة القيود؛ مثل الإنارة، والمسافة ووضع المتخاطبين، وهو ما يخفّض سقف الكلفة إلى المجانية، في مقابل لغة الجسد مثلا، لكنّ هذه الكلفة المنخفضة تكون على حساب المصداقية التي يتّسع هامش الريب فيها إلى حدّ كبير؛ فإذا استحضرنّا معيار الفائدة الذي يتأسس عليه مبدأ الانتخاب الطبيعي، فسينتهي بنا الأمر إلى القول باستحالة ظهور ملكة اللغة البشرية ضمن هذا المبدأ الذي يؤطّر تصوّر الدارويني³⁸.

4. نقد النموذج المعرفي للنظرية التطورية:

بعد هذا العرض الموجز لأهم ملامح المنظور التطوري لملكة اللغة عند الإنسان، ننتقل لتقييمه من خلال التركيز على الخصائص العامة للنموذج المعرفي الذي يصدر عنه، ثم المنهج الذي توسّله للوصول إلى نتائجه:

** المقصود بالتناظرية هنا أنّ العلامة تمثّل الحركة التي تعبّر عنها تمثيلا تناظريا؛ بمعنى أنّها تصفها في كلّ مراحلها، في حين أنّ الرقمية - نسبة إلى مجموعة الأرقام - تُبقي المرحلة المتوسطة بين رقمين غامضة، وهذه هي سمة اللغة البشرية، وعذاد السرعة التناظري والرقمي خير مثال لذلك. ينظر:

Ibid, p. 16.

³⁸ ينظر:

Knight, C. (2016), Puzzles and mysteries in the origins of language, Op. Cit., pp. 15-20.

1.4. النموذج الحركي غير المقيّد:

وهو نموذج يرى أنّ كل الموجودات تتحرّك عبر الزمن دون حدود تقيدها مبدئياً، وأنّ ما نراه من تفاوتها واختلافها هو أولاً مظهر مؤقت لاتوجد فيه حدود تصنيفية ثابتة، وثانياً هو نتاج للحركة الميكانيكية* التي تحكمها قوانين غامضة على رأسها "الانتخاب الطبيعي" الذي لانعرف بالضبط معيار توجيهه لهذه الحركة، وإن كان التفسير السلوكي القائم على المثير والاستجابة والتعزيز أقرب لجوهر هذا المعيار*. وفي هذا تصوّر محاولة لتغيب مفهوم "القيومية": الذي هو صفة إلهية لا غنى عنها لبقاء الوجود بعده نظاماً متوازناً، لأنّ تفسير التطوّر كحركة لا بد له من افتراض الغاية؛ وبالتالي المُحدّد لهذه الغاية. ويكرّس اللجوء إلى توظيف المفهوم المهم: "الانتخاب الطبيعي" محاولةً الحفاظ على النموذج المعرفي الحسيّ النافر من كلّ تفسير قائم على استحضار العلم الإلهي كأساس يقيني لاغنى عنه في بناء المعرفة البشرية.

2.4. المنهج:

اعتمد "دارون" في بناء نظريته على كلّ من الاستدلال والاستقراء، وإن كان منطلقه الأساس استدلالياً، في حين مثّل السلوك الاستقرائي لديه مجارة للروح العلمية في عصره.

وكانت استعانتة بالاستدلال نتيجةً لمحاولته تجاوز الحاجز الزمني الذي يفرضه البطء الشديد لظاهرة التطوّر؛ ما ألجأه إلى النظر إلى هذه الظاهرة من خلال نموذج

* هذا هو وصف "فودور" و"بياتلي-بالماريني" للتصور الدارويني للتطور؛ ينظر:

Fodor, J. & Piattelli-Palmarini, M. (2010), What Darwin Got Wrong, Farrar, Straus and Giroux, New York, p.xiii.

[https://annas-archive.org/slow_download/5897df4a6a4dac8538e18fc5aa596fdf/0/0/31/08/2025 20:18.](https://annas-archive.org/slow_download/5897df4a6a4dac8538e18fc5aa596fdf/0/0/31/08/2025%2018)

* لا أدلّ على ذلك مما ذهب إليه "فودور" و"بياتلي-بالماريني" من أنّ الفرق بين مذهب "دارون" و"سكينر"

"B. F. Skinner" أحد أهم رواد النظرية السلوكية، هو الاسم فقط؛ ينظر:

Fodor, J. & Piattelli-Palmarini, M. (2010), What Darwin Got Wrong, Op. Cit., p. xvi.

"الانتخاب الاصطناعي" لدى مرّي المواشي، والاستدلال من خلاله على تصوّره لطريقة عمل "الانتخاب الطبيعي". ويعيد هذا الموقف طرح سؤال "القصدية" أو "الغائية" فيما يتعلّق بمفهوم "الانتخاب الطبيعي".

أما الاستقراء؛ فقد جسّدته ملاحظاته الكثيرة لعدد كبير جدا من الظواهر الطبيعية المتعلّقة بالنباتات، والحيوانات، والبشر، ثم استخلاص نتائجه المؤسّسة لنظريته. وفي هذا السلوك تجسيد للاستقراء بمعناه القائم على الانتقال من الجزء إلى الكلّ.

ومن أبرز عيوب البناء الاستقرائي للمعرفة أنّه بناء هشّ؛ أكان في صورته المنطقية؛ حيث أنّ "استدلالا استقرائيا مباشرا يقوم على مقدّمات صادقة قد يقود إلى نتيجة كاذبة"³⁹، لأنّ الحكم بصحّة القضية "ق" في عدد كبير من السياقات لا يعني بالضرورة صحّتها في كلّ السياقات. أو في صورته التجريبية؛ حيث يمثّل تجسيدا "لبرهان فيه دور" كما أبرزه "د. هيوم" في القرن الثامن عشر؛ ذلك أنّه حين نحكم بنجاح مبدأ الاستقراء في كلّ الحالات انطلاقا من نجاحه في عدد محدود من الحالات؛ فنحن نستخدم الاستقراء لتبرير الاستقراء، وبالتالي نقع في الدور⁴⁰.

وتلقي هذه الهشاشة بظلالها على النظرية الداروينية؛ انطلاقا من أنّ هيكلها الأساس مستمدّ إما من غموض المفهوم المركزي فيها، أو من عدم تحقيق البناء المعرفي الاستقرائي فيها لمستوى مقبول من المصدقية.

3.4. أثر إغفال ثنائية "الوصل والقطع":

إنّ إقرار التطوّرين بمختلف منطلقاتهم وتوجّهاتهم بأنّ مجال البحث في أصل ملكة اللغة لدى الإنسان يندرج ضمن الألغاز أكثر من كونه من مسائل البحث العلمي،

³⁹ شاملرز، آلان، (1991)، نظريات العلم، الطبعة الأولى، ترجمة: الحسين سحبان وفؤاد صفا، المغرب:

دار توبقال للنشر، ص 28.

⁴⁰ ينظر: نفسه، ص 29.

يكشف عن عجزيين عن الإجابة على سؤال تطورية اللغة وفق نموذجهم المعرفي؛ ما يعني أنّ أيّ محاولة جادة في هذا السياق لابد أن تكون تمظهرًا لنموذج معرفي مختلف يسدّ الفجوات التي أنتجها النموذج السابق.

إنّ أبرز أسباب فشل مسعى النموذج المعرفي الحسي في هذا الاتجاه، هو عدم الوصل بين المعرفة البشرية و العلم الإلهي، واستبدال الموقف اللادري به؛ فغموض حيّز هام من نطاق البحث يجعل موضوعيته وشموليته محلّ شك؛ لأنّ غياب معطيات حاسمة من الظاهرة المدروسة عن البحث تجعل نتائجه بعيدة عن الدقة وتضعف قدرته التفسيرية، وهو بذلك يجسّد القطع وإن ادّعى الوصل.

6. الخاتمة:

تضفي مركزية اللغة في الوجود البشري مشروعية منهجية على اتخاذها مدخلا ومعيارا لتقييم النظرية التطورية عموما، والتصور الدارويني منها على وجه الخصوص. هذا الأخير؛ يقرأ انبثاق ملكة اللغة في المسار التطوري للإنسان بنفس الآلية الأساس التي أرساها لتفسير تطوّر كلّ الكائنات الأخرى، وهي مبدأ "الانتخاب الطبيعي"؛ حيث يعدّ ملكة اللغة نتاجا للترجيح الطبيعي للسمات المفيدة في مقابل إهمال السمات الأخرى، وفائدة اللغة في خدمتها للتواصل؛ وبالتالي التعاون. أما من حيث هيئة التطوّر فيراها ظاهرة متدرّجة تراكمت مكوناتها عبر الزمن. بالمقابل؛ ينقسم رافضو هذا تصوّر إلى فريقين؛ فريق يرى أنّ جوهر اللغة هو كونها ملكة معرفية يتمحور حولها البناء المعرفي الإنساني، وأنّ التواصل ثمرة جانبية لوجودها، أما ظهورها؛ فهو طفرة فورية نتيجة لعامل ما. ويذهب الفريق الثاني إلى أنّ الطبيعة الرقمية اللامحدودة والمجانية للغة البشرية تجعلها نظاما غير موثوق في العملية التواصلية، وهو ما ينقض جوهر "الانتخاب الطبيعي"؛ ما يجعل وجودها مستحيلا ضمن التصوّر الدارويني.

ويجمع كلّ هؤلاء أن مساحة الألباز فيما يتعلّق بتفسير ظهور ملكة اللغة أكبر بكثير من مساحة الفهم الجليّ، ما يفسح المجال أمام النموذج المعرفي البديل؛ القائل بأصالة ملكة اللغة لدى الإنسان، ومن ثمّ أصالة الإنسان، ضمن قالب للحركة الحيّة غير

المطلقة، التي تحكمها ثنائية الثابت والمتغير؛ فالثابت هي الحدود بين الأنواع، والمتغير خصائص الأفراد في نطاق كل نوع.

6. المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

أ. المراجع باللغة العربية:

1. شالمرز، آلان، (1991)، نظريات العلم، الطبعة الأولى، ترجمة: الحسين سحبان و فؤاد صفاء، المغرب: دار توبقال للنشر.

2. لالاند، أندريه. (2001)، موسوعة لالاند للمصطلحات الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، الطبعة الثانية، بيروت-باريس، منشورات عويدات، مج3.

ب. المراجع باللغة الإنكليزية:

1. Bolhuis JJ, Tattersall I, Chomsky N, Berwick RC (2014), How Could Language Have Evolved? PLoS Biol 12(8): e1001934. Doi: 10.1371/journal.pbio.1001934, 04/08/2024 21:50.

2. Chomsky, N. (2015), Powers and Perspectives: reflections on human nature and the social order, (2nd ed.), Canada: union labor.
https://annas-archive.org/slow_download/0bcdd18bb53de40ce72966a3264510c1/0/09/08/2025 13:46.

3. Chomsky, N., (2000). The Architecture of Language. (First Published), India: New Delhi, Oxford University Press.

4. Cuskley, C. (2020, June 12), Language Evolution: A brief overview. <https://doi.org/10.31234/osf.io/3y98j> , 04/06/2025- 21:05.
5. Darwin, Charles, M. A., (1889), *Descent of man and selection in relation to sex*, new edition, revised and augmented, D. Appleton and Company, New York.
6. Deacon, Terrence W. (1997), *The Symbolic Species: The Co-evolution of language and the Brain*, W. W. Norton & Company, Inc, New York: USA.
7. Dobzhansky, Theodosius, (1960), *The Biological Basis of Human Freedom*, Second printing, New York: Columbia University Press.
8. Dobzhansky, Theodosius, (Mar., 1973), Nothing in Biology Makes Sense Except in the Light of Evolution. *The American Biology Teacher*, Vol. 35, No. 3 (Mar., 1973), National Association of Biology Teachers. <http://www.jstor.org/stable/4444260> Accessed: 15/06/2025 21:28.
9. Fodor, J. & Piattelli-Palmarini, M. (2010), *What Darwin Got Wrong*, Farrar, Straus and Giroux, New York. https://annas-archive.org/slow_download/5897df4a6a4dac8538e18fc5aa596fdf/0/31/08/2025 20:18.
10. Gontier, Nathalie (2012), Selectionist Approaches in Evolutionary Linguistics: An Epistemological Analysis, *International Studies in the Philosophy of Science*, 26:1, 67-95. <http://dx.doi.org/10.1080/02698595.2012.653114>. 18/06/2025. 20:44.
11. Hauser, M. D., Chomsky, N., & Fitch, W. T. (2002). The Faculty of Language: What Is It, Who Has It, and How Did It Evolve? *Science*, 298(5598), 1569–1579. <https://doi.org/10.1126/science.298.5598.1569>.
12. Ivor Janković & Tena Šojer, (2013/2014 [2015]), *The Evolution of Speech and language*, *Opusc.archaeol.* 37/38, 11-48, 2013/2014 [2015]. doi: 10.17234/OA.37.1, 23/06/2025 20:34.
13. Knight, C. (2016), Puzzles and mysteries in the origins of language, *Language & Communication* 50 (2016) 12–21, Elsevier Ltd, p.13. <http://dx.doi.org/10.1016/j.langcom.2016.09.002> 07/07/2025 11:40.
14. Kramnick, Jonathan, (Winter 2011), Against Literary Darwinism, *Critical Inquiry*, Vol. 37, No. 2 (Winter 2011), pp. 315-347 Published by: The University of Chicago Press. Stable URL: <https://www.jstor.org/stable/10.1086/657295>. 19/06/2025. 19:22.
15. Pinker, S. & Bloom, P. (1990), *Natural Language and Natural Selection*, Behavioral and Brain Sciences (1990) 13, 707-784, USA: Cambridge University Press.
16. Sterelny, Kim, (2016), Cumulative Cultural Evolution and Origins of Language, *Biol Theory*, Volume 11, pages 173–186, (2016), p. 174. DOI 10.1007/s13752-016-0247-1 13/08/2025 22:04.
17. Wolfgang, W. (2004), *The Evolution of Human Language: Scenarios, principles, and cultural dynamics*, John Benjamins Publishing Co. Amsterdam. The Netherlands-Philadelphia. USA.